بكراهيتها لليهود، وكان على رأس هؤلاء وزير داخلية روسيا القيصرية فياتسلاف بليفه الذي اعتبره يهود روسيا ليس فقط معادياً لهم بل مسؤولاً، أيضاً، عن إحداث كيشينيف سنة ١٩٠٣ التي ذهب ضحيتها الكثيرون من بين صفوفهم. وقد جرى الاجتماع، ولما تمض على تلك الأحداث بضعة شهور، وخلاله ردد هرتسل مقولة «تماثل المصالح»، ولم يخف بليفه سروره تجاهها، إلى جانب تأييده لها.

وجدت هذه المقولة، أيضاً، بإبراز هرتسل المصالح التي يمكن أن يجنيها كل وسط من مشروع قيام الدولة اليهودية، أذناً صاغية لدى الأوساط الاستعمارية الأوروبية المتحفزة للانقضاض على «الرجل المريض» لاقتسام تركته. ومن الجدير بالذكر، أن صاحب الدعوة الصهيونية الذي كان مدركاً وواعياً للتناقضات القائمة بين اطماع الأوساط الاستعمارية الأوروبية في بريطانيا وفرنسا والمانيا، حرص على أن يركز امام كل وسط على المصالح الذاتية العائدة إليه في حال تطبيق الفكرة، وكان بذلك أشبه بالتاجر الذي يروج لبضاعة وفق أهواء كل مشتر.

وبعد أن تمكن من بيع الفكرة والترويج لها بين الأوساط الاوروبية، وعقب نجاحه في استمالة قطاع من اليهود إليه، حاول هرتسل بيعها إلى «الرجل المريض» عن طريق ما اعتبره «تماثل المصالح» بين الصهيونية والسلطنة العثمانية. وبطبيعة الحال، لم يكن التماثل متمثلاً في عملية تخليص الامبراطورية العثمانية من اليهود، كما كان الأمر بالنسبة للشعوب الاوروبية، بل في المردود الاقتصادي الذي يمكن للرجل المريض أن يجنيه من واقع وجود دولة يهودية مزدهرة في الشرق تحرص على خدمة السلطان، وعلى تعزيز حكمه بدعم خزينته بالأموال.

لم يجد السلطان تماثلاً حقيقياً في المصالح، فوضعه مغاير لاوضاع الدول الأوروبية الاستعمارية أو غير الاستعمارية؛ إذ لم تكن في مملكته رغبة كامنة في النفوس للتخلص من اليهود، وحتى لو كانت هذه الرغبة قائمة فإن صاحب المشروع لم يطرح عليه ولاية ويلز في بريطانيا لتحقيق مشروعه وإنما طرح عليه مكاناً في مملكته. ومن هنا جاء تحفظ السلطان الذي لم تثنه عن موقفه الاغراءات بتقديم الأموال وتنظيم إدارة خزينته من قبل اليهود؛ الأمر الذي دفع هرتسل إلى العودة والتركيز على التماثل المصلحي مع الاستعمار.

بيد أن مأساته، في ذلك الحين، كانت تتمثل في غياب السيطرة الفعلية للقوى الاستعمارية الأوروبية على فلسطين والمناطق المجاورة لها لبطء «الرجل المريض» في لفظ أنفاسه الأخيرة. ومن هنا جاء التفكير بإقامة الدولة اليهودية في اوغندا، أو في منطقة العريش في صحراء سيناء بحكم توفر السيطرة الاستعمارية على الأولى وبسط نفوذها على الثانية. ولم يكتب لهذا التفكير أن يعمر طويلاً لاسباب صهيونية واستعمارية ليس هنا مجال الوقوف عندها. ومع اندلاع الحرب العالمية الاستعمارية الأولى وانحسار ظلال الهيمنة العثمانية عن الشرق العربي ووقوعه فريسة الاستعمارين البريطاني والفرنسي، وضعت الصهيونية ثقلها إلى جانب الاستعمار البريطاني، وتمكنت بفعل تماثل المصالح من الحصول على وعد بلفور الشهير القاضي بإقامة «وطن قومي» لليهود في فلسطين. ومن نافل